الجمجمة

للشاعر الالهي الكبير رابندرناث طاغور

ترجمة الأديب المعروف

عبداللطيف النشار

كان يجاور غرفتنا ونحن أطفال ، غرفة أخرى بها جمجمة معلقة . وكان نسيم الليل يحدث صوتاً إذ يمر من خلال تلك العظام ونحن بالنهار نحدث مثل هذا الصوت إذ نعبث بها

وكان صديقنا المقيم فى تلك الغرفة طالباً بمدرسة الطب . وكنا نتلقى عليه درساً فى التشريح لأن أوصياءنا أرادوا أن نكون ملمين بكل العلوم . أما أصحابنا فقد عرفوا مقدار نجاحهم فى تلك الرغبة وأما الذين لا يعرفوننا فخير لنا أن نستر عنهم الحقيقة

مضت سنوات كثيرة على ذلك العهد ونقلت الجمجمة من تلك الغرفة ومحى من أذهاننا علم التشريح . ومنذ أيام قليلة زارنا ضيوف كثيرون فتركت لهم غرفتى وقضيت الليلة فى الغرفة التى كانت بها الجمجمة . وانقضى معظم الليل وأنا مسهد أسمع أجراس الكنيسة تدق ساعة بعد ساعة . وما زال يضعف نور المصباح حتى انطفأ . وكان قد حدث للأسرة مصاب فى الأيام الأخيرة فاتجه ذهنى بالطبيعة بعد انطفاء النور إلى التفكير فى الحياة والموت وفى أعمارنا القصيرة التى ينتقص منها مرور الليل والنهار

ووصلت بى جولة الفكر إلى ذكرى الجمجمة . وبينما كنت أتخيل الجسم الذى كانت له هذه الجمجمة إذ تصورت فجأة أن إنساناً يمشى بالغرفة ويدور حول السرير وكنت أسمع بوضوح تردد أنفاسه السريعة وتصورت أنه يبحث عن شىء مفقود . ولم تزل خطاه تسرع وكنت أشعر يقيناً بأن هذا مجرد وهم بعثه فى ذهنى المكدود طول الأرق . وكنت أعرف أن نبض قلبى العالى هو الذى حسبته خطوات السائر ولكننى بالرغم من ذلك أحسست برعشة باردة . ولكى أخلص من هذا الوهم ناديت بصوت عال : « من هنا ؟ » فتخيلت أن الذى يسير قد وقف وأجابنى : « لقد جئت أبحث عن جمجمتى »

وخجلت أن أخاف من وهم خلقه خيالى فرفعت رأسى عن الوسادة وقلت : « أفى هذا الوقت من الليل ؟ وماذا تفعل بجمجمتك الآن ؟ »

فكان الجواب : « ما هذا السؤال ! ألم يكن فى هذه الجمجمة كل سحر الشباب وأثر الستة والعشرين عاماً التى عشتها ؟ أليس لى من أجل ذلك أن أبحث عنها لأراها ؟ » .

قلت : « لك ذلك فابحث عنها كما شئت ودعنى أنم » فأجابنى الصوت وهو صوت امرأة : « ولكنك الآن وحدك فهل أجلس معك لنتحدث قليلا ؟ لقد كنت فى مدة الحياة أتحدث مع أمثالك من الرجال وأود الآن أن أعيد ذكرى الحياة الماضية »

ثم شعرت بأن إنساناً يجلس على مقربة منى فأجبت : « يسرنى أن أتحدث معك فحدثينى بخبر لطيف »

وهنا دقت الساعة الثانية وقالت الزائرة : « أغرب شىء أذكره هو تاريخ حياتى فدعنى أقله :

« لما كنت فى عالم الأحياء لم أر ما أخافه غير زوجى فلست أشبه قلبى بشىء غير الأسماك التى تصاد بالشصوص « السنارة » فقد صاده هذا الغريب وأخرجه من هدأة الطفولة وراحة الأسرة فلم يعد إليها . ومات زوجى بعد شهرين فحزن عليه أهلى وأصدقائى وقال أبو الزوج لأمرأته ان عينى تدلان على السوء — هل أنت مصغ؟ أرجو أن تسمع القصة

قلت أنا مصغ وهذا ابتداء غريب فقالت : « دعني أتمها . . . فعدت مسرورة إلى منزل أهلى وقد كنت أعلم أننى من أجمل الناس وان كان أصحابى لا ينصفوننى فماذا ترى أنت ؟

قلت : « ربما كنت جميلة ولكنني لا أذكر أنى رأيتك » فقالت كيف كيف لم ترنى ألم تنظر إلى الجمجمة ؟ ثم ضحكت وقالت . « نعم ان الشهادة التى شهدتها الجمجمة عن جمالى شهادة باطلة فليس فى الثقبين الخاليين أقل إشارة إلى سحر نظراتى وفتنة العينين والخدين وليس فى عظام الفم مايدل على حسن ابتسامى وجمال الشفتين العقيقيتين وليس من السهل اقناعك أن العظام التى رأيتها كانت لوجه فاتن مشرق الطلعة

لين الملمس غض الشباب و أن محاولتى اقناعك لتدعونى إلى الابتسام ولكنها تبعث فى نفسى غيظاً منك وما كان الاطباء فى عصرى يتخيلون أن هذا الوجه سيصير أداة يتعلم عليها الطلبة علم التشريح ،لقدكان فى عهدى، طبيب لقبني بالزنبقة وما كان ليدعونى كذلك لو فكر فى أنك أنت وأصحابك ستدرسون علمه على جمجمتى

« لقد كنت كلما مشيت أشعر بأننى كالماس وان لى مثل ماله من ضياء ما فأينما التفت الفيت حولى شعاعا من الحسن و كنت أقضى الساعات ناظرة إلى يدى، إلى هاتين اليدين اللتين فتنتا أجمل الرجال

ولكنك قد نظرت إلى جمجمتى فما تصدق ماأقول و لهذا أبغضك وسأشردنومك فى ليلة من الليالى بأن أريك فتنة الحسن فى بعض أحلامك و أضيع مافى رأسك من علم التشريح!!

قلت : « اقسم بجسمك ان كان لا يزال له وجود ان ليس فى رأسى كلمة من علم التشريح وليس به الآن غير صورة من الجمال تسطع فى حلك الليل . وما أستطيع الآن أن أزيد » فقالت : « لم يمكن لى صواحب من النساء . وكان لى أخ واحدوضع نصب عينيه ألا يتزوج . وكنت وحدى فى منزله اقضى الساعات فى الحديقة حالمة بان الكون يحبني وان نجومه الساهرة ترتوى من ينبوع حسنى . وان الرياح تئن من تبريح شوقها وان الارض التى اطؤها لوكانت تعقل لغاب عنهارشدهاحينما اخطو عليها . وان كل شباب الدنيا حشائش خضراء قد امتد منهابساط لأسير فوقه . ولكن قلبى بالرغم من ذلك كان يزيد حزناً على حزن

« لما نجح شيكار — صديق أخى — فى امتحان الطب أصبح طبيباً للاسرة . وكنت قد رأيته مرارا من وراء حجاب . وكان أخى غريب الأطوار فهو لا يريد أن يرى الدنيا بعينين مفتوحتين و لم يكن له صديق غير شيكار فهو هو الرجل الواحد الذى عرفته . . هل أنت سامع ؟ فيم تفكر ؟ »

فتنهدت وقلت : « تمنيت ان أكون شيكار ! » فقالت : « انتظر واسمع قصتى : فى ليلة مرضت وجاء الطبيب ليرانى و كانت هذه أول مقابلة . ونمت عندما جاء بقرب النافذة لينعكس احمرار الجو عند الغروب على وجهي . ونظر الطبيب الى فتخيلت

نفسى فى مكانه وتصورت أننى انظر الى مثل وجهى . وقد انسدلت فوق جبينى الناصع خصلة من شعرى الأسود وتحت خدى الوسادة البيضاء . وقد انسكب فوق وجهى شعاع الغروب . فسأل الطبيب أخى فى استحياء : « هل أجس نبضها ؟ » فمددت اليه معصما وقلت فى نفسى : « آه لو كان يزين معصمى هذا اسواره! »(١) ولم أر فى حياتى طبيباً غيره يضطرب وهو يجس نبض المريض فقد كانت أصابعه ترتعش وكان يجس النبض من ذراعي ليعرف حرارتى وأنا أجس النبض من قلبه لأعرف مبلغ حبه ، الاتصدق ؟ !

قلت : «بل أصدق لان القلب يروى حين ينبض قصة العمر» فقالت :«وبعد أن مرضت مراراً وشفيت مراراً . وجدت ان الذين يسكنون دنيا خيالى قد انتقصو حتى لم يعد غير اثنين فواحد الطبيب ثم عليله وهو انا

«وكنت فى بعض الليالى ألبس جواهرى سرا وارتدى ثياب العرس وأضع على رأسى أكليلا من الفل والياسمين وأجلس فى مجلسى المعتاد تحت الشجرة

« هل تظن أن الجميل يتعب من النظر الى جماله ؟ كلا ! فقد كنت انظر الى نفسى بعينى الطبيب وكنت أنظر اليه بعينى نفسى لقد كنت واحدا ولكننى اثنان . وافتتنت وسحرت وأحببت ولكنى أسرفت فى ذلك . وكنت أفطن فى بعض الاحيان فأتنهد حسرة على نفسى السابحة فى الاجواء كأنها النسيم

من ذلك العهد لم أعد وحيدة . . ثم ماذا لو جعلت هنا نهاية قصتى ؟

قلت ان شئت فلا بأس ولكن تكون قصة غير كاملة . وفى استطاعتي أن أضع بقيتها عند الصباح . . فقالت ! ولكن لابد من تمامها لافسر لك الابتسامة البادية على فم الجمجمة فبعد أن جلست مراراً مع الطبيب صرت أسأله عن أنواع السموم وأيها أقرب للقتل . وملأت هذه المحادثات ذهنى بفكرة الموت .وهكذا لم يعد لى فى الحياة شاغل غير الحب والموت : وقد قاربت قصتى النهاية فقلت : «وكذلك قد قارب الليل النهاية »

قالت : « وبعد عهد لاحظت أن الطبيب يحتفظ بسر يخجل من ابدائه لي وجاء مرة فى ثياب جديدة وطلب أن يعيده أخى العربة فى الليل فسألت أخى عن السبب وعلمت أن الطبيب سيتزوج وان هذه الليلة هي ليلة عرسه

---

(١) الارامل فى الهند لا يلبسون الحلى

« عند ذلك ضحكت ضحكة عالية وعلمت أن زوجته وارثة وأنه خطبها من أجل مالها . ولكن لماذا يخفى سره عنى ؟ لقد كنت أتوسل اليه الا يتزوج لان ذلك يكسر قلبي . ولكن الرجال لا ينبغى أن يوثق بهم

ولما عاد الطبيب فى عصر ذلك اليوم قابلته وكنت أضحك كالعادة . وقلت .. هل ستتزوج الليلة ؟

فارتبك من هذا السؤال . وعدت فقلت : « ولكن أين الموسيقى واين معالم الفرح ؟ » فتنهد وأجاب ! « وهل الزواج مفرح »

ضحكت مرة اخرى وقلت ! « لابد من ايقاد الشموع واستدعاء الموسيقى » وحملت اخي على طلبهما فذهب وتركنا وظللنا نتكلم عن عروسه وعن اكرامى لها عند ما تزورنى وقلت . وهل ستبقى تجس نبض الناس ؟ »

فبدالى اضطرابه وان كان ما فى كل النفوس أخفى من الخفاء، ولما جاء أخى قدمت اليهما النبيذ فشربا ثم ذهبا الى العرس

« ولابد هنا من اخبارك بشيء هو أننى كنت اشتريت سماً ووضعته فى كأس الطبيب ثم شربت كأساً أخرى مسمومة وظللت اسمع صوت الموسيقى وأنا ألبس ثياب العرس وأتحلى بالجواهر والازهار ثم نمت وكانت ليلتى جميلة وكانت الريح الشرقية تهب فتحمل لى روائح الفل من الحديقة وتحمل عنى ذكريات الدنيا . وصار يضعف صوت الموسيقى شيئاً فشيئاً ثم أغمضت عينى وابتسمت

وأظن أن الناس أتوا فرأوا فوق ابتسامتى أثر النبيذ والسم . وأظننى دخلت القبر وأنا لا ازال ابتسم . ولما انتبهت روحى بعد الموت رأيتكم تتعلمون التشريح على جمجمتى التي كانت بها ذكرياتى . . . هل أعجبتك هذه القصة ؟

فقلت : « هى قصة ممتعة » ثم صاح الديك فقلت! « هل أنت هنا ؟ »

فلم يجبنى أحد ثم انار الفجر غرفتى .